المحاضرة الثامنة: الغموض في الشعر

1-مقدمة:

يعد الغموض من أبرز الظواهر التي ميزت التجربة الشعرية المعاصرة، وقد شكل محورا هاما من محاور الجدل الفكري في الساحة النقدية العربية الحديثة ، لكونه ظاهرة متعدد المحاور والأبعاد، فقد ارتبط بمفهوم الحداثة، إذ كان نتيجة بارزة من نتائج الاحتكاك بالآخر الغربي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هو يعكس بصورة أو بأخرى حياة الإنسان المعاصر في تناقضاتها وتعقيداتها المختلفة، وعلى اعتبار أن الأدب جزء من حياة الإنسان وفكره فهو يتأثر آليا بتلك التغيرات والتحولات الحاصلة. ويبتدئ الغموض في مراحله الأولى على مستوى اللغة، حيث يحملها المبدع من الدلالات المختزلة غير المباشرة ومن الإيماءات ما يستبعد المعاني المباشرة أثناء عملية التلقي إلى مستويات أعمق بلغة.

ولعل السبب الرئيسي وراء ظاهرة الغموض هو استفزاز فكر المتلقي، للانتقال به من مرحلة التلقي العقيم للنصوص إلى التفاعل الإيجابي المفضي إلى المساهمة في إنتاج المعنى.

2_ أسباب الغموض في الشعر العربي المعاصر:

يجد الباحث في قضية الغموض في الشعر المعاصر، أن أسبابها متعددة ومتداخلة، فهي لا تتعلق بمستوى النص الشعري فحسب، وإنما قد تكون موجودة على مستوى الشاعر، بل والمتلقي نفسه "ظاهرة الغموض قضية أدبية نقدية، لذا فهي تتصل بمجموعة من النظريات التي تتوزع ما بين الأدب والنقد والمعارف التي تتصل بهما: نظرية الأدب تاريخ الأدب، نظرية القراءة أو استجابة القارئ، علم الاجتماع، علم النفس، الأنثربولوجيا". (عبد العليم محمد إسماعيل علي: ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص5)، ويمكن إجمالها في ثلاث مستويات: النص، المبدع والمتلقي.

أ. أسباب متعلقة بالنص:

كل قصيدة تكتب في ظروف خاصة وحيثيات خاصة وتجربة شعورية خاصة، فإذا تغيرت الأزمنة والحيثيات تتغير المعاني بدورها وتأخذ دلالات جديدة قد تكون مبهمة بسبب إخراجها من سياقاتها الأصلية، وفي هذا الصدد يقول أحدهم: "ظاهرة الغموض في الشعر العربي لا يمكن أن تفهم بعيدا عن السياق الاجتماعي الذي أفرزها، ولفهم هذا السياق الاجتماعي لابد من النظر إليه في ‘طار حركة المجتمع العربي الكلية في التاريخ ابتداء من العصر الجاهلي، وذلك لتوضيح أهم المنعطفات في مفردات المهاد الحضاري العربي، وعلاقة هذه التحولات بالإبداع خيث الإنتاج والتلقي." (عبد العليم محمد إسماعيل علي، ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص9).

ب.أسباب متعلقة بالمبدع:

نظرة الشعراء للشعر ومفهومهم له يختلف من شاعر لآخر ومن تيار فكري لآخر ، فالرومانسيون يرون أن الشعر ترجمان الروحي ولابد أن يعبر بعمق عما يختلج في النفس الإنسانية، ولاشك أن هذا التعمق في أغوار نفسه من شأنه أن يقدم نصوصا معتمة مبهمة غامضة غموض الأعماق البشرية، والأمر ذاته بالنسبة للرمزيين الذين يعتقدون أن القصيدة لا تتضمن معنى واحدا، على اعتبار أن الكلمات لا تحمل معنى واحدا خاصا، وهكذا يتولد الغموض والإبهام، ونأخذ هذا القول على سبيل التمثيل لا الحصر: "الشعر وليد حمى روحية وحريق مشتعل في النفس، فإذا لم يكن الشعر من وحي هذا الجحيم فعبثا يكتب صاحبه، نثرا أو غير نثر، وعبثا يكتب الناقد، وعبثا تزرع الصفحة الثقافية". (جهاد فضل: قضايا الشعر الحديث، ص 46).

ج. أسباب متعلقة بالمتلقي:

قراءة كل نص مهما كان نوعه وشكله تخضع للخلفية الثقافية للمتلقي ولمرجعياته المعرفية، ومتلقي العصر الحديث قارئ مستعجل سريع على شاكلة الحياة الحديثة، وبالتالي كلما قل الهدوء والتروي كلما اتسعت الهوة بين النص والمتلقي، "تواجه الباحث في اللغة العربية صعوبات جمة لتحديد مسار البحث، وذلك لغياب الجهاز المفاهيمي المشترك الذي يضبط المصطلحات والمفاهيم والأبعاد في الحقل الدراسي المحدد، ولخضوع كثير من الكتابات للتأثيرات الأيديولوجية المباشرة. لذا غالبا ما تأتي الدراسات متنافرة ومتناقضة أحيانا حتى في الحقل الدراسي الواحد، كذلك تأتي متباينة في درجة عمقها وموضوعيتها" (عبد العليم محمد إسماعيل علي، ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص88).

وتبقى القصيدة المعاصرة بحاجة إلى قارئ مثقف جدا حتى يتمكن من حل شفراتها "فغموض العمل الفني قد لا يرجع إليه وحده، فربما كان مرجعه إلى الشخص المقدر للقيمة الجمالية أو المتذوق لها" (محمد عبد الواحد حجازي: ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 46).

3_ مظاهر الغموض في الشعر العربي المعاصر:

من أهم مظاهر الغموض في الشعر العربي المعاصر:

_ تكثيف الدلالة في الألفاظ والتراكيب.

_ البناء الفني الجديد.

_ التمازج بين اللغات.

_ توظيف الرمز والأسطورة وغيرهما.

_ الانزياحات وخرق أفق التوقع.

4_ الموقف النقدي العربي من ظاهرة الغموض في الشعر المعاصر:

تباين الموقف النقدي العربي من ظاهرة الغموض في الشعر العربي المعاصر، فهناك من يراها ضرورة حتمية أفرزتها التطورات الفكرية والاجتماعية التي مست مختلف مناحي الحياة الإنسانية، نتيجة تصلب النماذج القديمة ، ذلك ما عبر عنه أدونيس في قوله: "إن رفض الرؤى الشعرية القديمة للعالم، ورفض الظواهر الثابتة التي تظل هي هي، ورفض شرحها، إن هذا كله ولد عند الشاعر واقعا سديميا محطما، غامض المعنى" (أدونيس: محاولة في تعريف الشعر العربي الحديث، ص 86)، وغير بعيد عن أدونيس نجد محمد عبد الواحد حجازي يبرر للغموض بضغوطات العالم المختلفة واضطراباته الدائمة، كل ذلك ولد حالة لا استقرار لدى الشاعر المعاصر، فانعكس ذلك على لغته، فهو "يحاول أن يشق طريقه وسط غيوم كابية من الغموض، فإذا انعكست مشاعره على عمله الفني، فلا تثريب عليه ولا لوم." (محمد عبد الواحد حجازي: ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 59).

بالمقابل نجد فئة من النقاد رفضت هذه الظاهرة رفضا شديدا، معتبرة إياها إفرازا من إفرازات الحداثة الغربية، وضعفا في الإبداع الشعري لدى المبدع، " أنا أعرف أن هناك نقادا وأدباء ليس لديهم ما يقولونه فيلجأون إلى الغموض الذي لا يخفي أي قيمة فنية أو أية قيمة جمالية" (جهاد فضل: قضايا الشعر الحديث، ص 24)

و ما تجدر الإشارة إليه أن المعارضين لم يرفضوا الغموض كلية لكون جزء أصيل في الشعر، لكن ما أعابوه هو المبالغة فيه لدرجة التعمية " والغموض من طبيعة كل شعر، عربي أو غير

عربي، ولكن التعمية ليست أبدا من جوهره، ولم يعرف تاريخ الشعر العالمي مرحلة باتت فيها المذكرة الإيضاحية التي يجب أن ترفق بالقصيدة مطلبا قوميا كالمرحلة التي يمر بها الشعر العربي اليوم". (جهاد فضل: قضايا الشعر الحديث، ص 43).

5–خاتمة:

تعد ظاهرة الغموض من أبرز الظواهر التي لازمت الشعر المعاصر، وقد تباينت الآراء إزاءها، بين من يعتبرها ضرورة حتمية فرضتها ظروف الإنسان المعاصر، وبين من يرفضها ويعدها إفرازا من إفرازات الحداثة والاحتكاك بالمنجز الغربي.

مراجع خاصة بالمحاضرة:

_محمد عبد الواحد حجازي: ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث

_ أدونيس: محاولة في تعريف الشعر العربي الحديث

_ جهاد فضل: قضايا الشعر الحديث

_ الإبهام في شعر الحداثة،العوامل والمظاهر وآليات التأويل ،عبد الرحمن محمد القعود ، مارس 2002.

_ ر.م.البيريس– الاتجاهات الأدبية الحديثة, ترجمة جورج طرابيشي, منشورات عويدات, بيروت، باريس، الطّبعة الثّالثة 1983

_في قضيا الشعر العربي المعاصر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

_مفهوم الشّعر عند رُوّاد الشّعر العربي الحر، فاتح، علاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب ديمشق، ط2001